علم النفس والإسلام

للدكتور محمد مظهر سعيد

عميد التربية وعلم النفس والاجتماع

- ٥ -

عرضنا فى البحث السابق كيف تطور سلوك الانسان من المستوى الغريزى الاولى الى مستوى العواطف الراقية، وكيف ينظم جميع استعداداته الموروثة والمكتسبة فى مجموعة واحدة منسجمة مؤتلفة ، تدور حول احترام الانسان لنفسه واحتفاظه بكرامته ، ومراعاة الواجب فى كل مايؤديه من عمل ، فيصبح ذا خلق عظيم كريم ، وتتجه كل جهوده العقلية والعملية ووجدانه ونشاطه ، نحو المبدأ الذى ينشده ، أو الفكرة السامية التى يسعى لتحقيقها . كل هذا بدافع من عقله ونفسه . ولو كان الانسان يسير بالعقل وحده ، ولا يتأثر الا بما يدركه ، ولا يتصرف الا فى حدود ما يقتنع به ، ويستطيع أن يتحكم فيه بأرادته وتفكيره ، أو يجعله مركزا لعواطفه ، لانتهى البحث عند هذا الحد .

ولكن الانسان عرضة لحالات نفسية كثيرة مفاجئة ، قد تطرأ عليه فترة ما ثم تزول من تلقاء نفسها ، أو تلازمه مدة طويلة من غير أن يعرف لها سببا فتارة يكون منبسطا ، وتارة منقبضا ، أو يغلب عليه الانبساط والسهولة فى الطبع فيكون منبسط المزاج، أو بالعكس يغلب عليه الانقباض والتشكك فيكون منقبض المزاج ، أو يكون جم النشاط لايكل ولا يمل ، أو خجولا بطبعه قليل النشاط ، وما الى ذلك من شدة أو ضعف وسرعة أو بطء ومرح أو كآبة ، وهذه كلها أحوال مردها البدن ، لا العقل ولا النفس .

ففى البدن جهاز عصبى دقيق الصنع ، يسيطر على سائر الاعضاء ويقوم بالمعقد من الاعمال ، ويلبى آلاف المؤثرات الخارجية والداخلية ، ويؤثر أثرا مباشرا فى تفكيرنا وانفعالنا وسلوكنا ، فان انتظم انتظمت كل الاعمال .. وأحس الانسان بالارتياح والاطمئنان واعتدل المزاج ، وان اختل اختلت الاعمال وأحس الانسان بالقلق والضيق وعدم الارتياح ، وفسد المزاج ، وفى الجسم غدد لها افرازات تؤثر على الجهاز العصبى ذاته أثرا ظاهرا بارزا يظهر فى سلوك الانسان ، كتأثير المنبهات والمهيجات أو المخدرات والمنومات ، ومنها ما ينصب أثره على النشاط البدنى والوظائف الفسيولوجية ، زيادة أو نقصا ، فيكون الشخص سريع الحركة متدفق النشاط ، منوع الانتاج

أو بطيئا متلكئا خاملا فى كل تصرفاته ، ومنها ماينصب على النشاط الفعلى فيكون الشخص ألمعيا متوقد الذكاء حاضر البديهة ، أو بطىء الفهم سريع النسيان ، ناقص العقل ، ومنها ما ينصب على الناحية الوجدانية ، فيكون الشخص سريع الانفعال والتهيج متقلبا فى عواطفه ، أو هادىء الطبع متزن الوجدان ثابت العاطفة ، وبعض الامراض الطارئة لها أثر كبير فى تكييف المزاج ، فالسل عادة يجعل صاحبه متفائلا ، فى حين أن مرض السكر يجعله قلقا متبرما سريع الغضب .

وهناك عوامل أخرى هامة تؤثر فى المزاج كالتعب ، فالناس يختلفون اختلافا كبيرا من حيث قابليتهم للتعب ، ومقاومتهم له والاستمرار فى العمل رغم وجوده ، وشعورهم به . فقد يبدأ شخصان عملا واحدا فى وقت واحد . وهما فى غاية النشاط فيقبل أحدهما على العمل مطمئنا هادئا فيستمر فيه وينتج انتاجا سليما وهو منشرح الصدر ، ويشعر بالتعب .. ولكنه يقاومه الى أن يتم أداء العمل ، وأما الثانى فيظهر القلق والتبرم فيشتت انتباهه وتكثر أخطاؤه ويقل انتاجه ، ويشعر بالتعب بعد فترة وجيزة فى بدء العمل .

فالمزاج اذن هو الطابع الذى يميز الانسان عن غيره فى الناس فى مجموع أساليب سلوكه وتصرفاته وحالته النفسية العامة ، نتيجة لعوامل طبيعية موروثة كتكوين بدنه وأجهزته وغدده وآثار التفاعلات الكيمائية والعضوية التى تحدث فى البدن فتؤثر على الجهاز الهضمى ووظائف بقية الاجهزة والاعضاء ، وعوامل بدنية طارئة كاختلال الغدد والافرازات والامراض .. وكذلك أسلوب المعيشة والجو والمناخ والتغذية كلها لها أثرها المباشر على المزاج ..

والغرائز باعتبارها أهم مصادر السلوك الانسانى وأقوى الدوافع ، لها بالضرورة أثر مباشر فى تكوين المزاج ، فاذا تطرفت غريزة من الغرائز ، وقويت على حساب الغرائز الاخرى ، أو كان من طبيعة الظروف المحيطة بالانسان أن تثار فيه غريزة ما ، استثارة متكررة مستمرة ، فانها تكسبه مزاجا خاصا مصطبغا بهذه الغريزة . فالخوف مثلا اذا ازداد وتكررت المواقف التى تثيره فى حياة الانسان جعلته جبانا مترددا خجولا ، وغريزة المقاتلة بالمثل تجعل الانسان مشاكسا عنيدا ، وغريزة التسلط تدفعه الى التعاظم والتسامى . وغريزة الخضوع تدفعه الى الاغراق فى المسالمة والاستكانة ، وتطرف الغريزة الوالدية والحنو الزائد يدفعه الى التضحية والايثار ، والتملك الى البخل والتقتير ، والناس جميعا يشتركون فى الغرائز كيفا ، ويختلفون كما ومقدارا ، ومن ثم يختلفون مزاجا ، وقد يقوى فى الانسان غريزتان أو أكثر فيصبح ذا مزاج مركب من مظاهر هاتين الغريزتين أو الغرائز ، فالاعتذار والاضطهاد والاستبداد ينتج عن تطرف غريزتى

السيطرة والمقاتلة ، وكثيرا ما يحدث أن يشعر الانسان بدافع غريزى يتملكه ولا سلطان له عليه ، ويخشى أن يكشفه هذا الدافع للناس فى ثوب لا يرضاه فيظهر فى ثوب آخر ، هو من نفس نسيج الغريزة ، ولكن فى لون آخر مقبول ، أو يكون مظهره تناقضا لحقيقة مايشعر به تماما ، فقد تكون الأثرة والاستبداد تعويضا عن شعور بالنقص والخضوع ، وهكذا تؤدى الغريزة ان تسلطت وقويت الى مزاج متطرف فى طبيعتها ، أو مزاج آخر مناقض لها يقوم بعملية التعويض .

فتطرف غريزة الهرب فى الخطر والخوف من المخاطر يخلق مزاج الجبن أو التهور على حد سواء ، والاستطلاع يؤدى للمغالاة فى التجديد أوالتطرف فى المحافظة على التقاليد ، والمقاتلة الى الفخ والحروب والاعتداء أو المسالمة والدعوة للسلام .

وغريزة التجمع الى الاندماج فى الجماعة أو الخروج عليها ، وبالمثل تنتج الأثرة وحب الذات من قوة غريزة السيطرة المباشرة أو تكون تعويضا عن الخضوع ، والشجاعة تنتج من المقاتلة والتسلط أو تكون رد فعل مباشر للخوف والمسالمة والدعوة للسلام قد تأتى عن اشتداد الخوف أو من قمع غريزة المقاتلة عندما تتطرف ويخشى الانسان سوء أثرها فيه .

فهناك اذن مزاج أصيل ومزاج مفتعل عن طريق التعويض ، ويتميز المزاج الناتج عن التعويض واخفاء مايناقضه عن المزاج الناتج عن الدافع الغريزى ذاته ، ان الاول يكون دائما متطرفا خارجا عن حد المعروف المألوف ، فالشجاعة الناتجة عن تعويض الخوف تكون دائما تهورا واندفاعا ، فى مواقف لاتتطلب هذا القدر من الشجاعة والاقدام ، والأثرة الناتجة عن تعويض الشعور بالنقص ، لاتتمثل فى مجرد التمسك بالكرامة والدفاع عنها ، وانما تتطرق الى جنون العظمة ، والمسالمة الناتجة عن تعويض المقاتلة تكون مسالمة مسلحة ، أو دعوة لقمع الحرب بالحرب ، ومنع التسلح بالتسلح .

وليس من شك فى أن للمزاج أثر كبير فى نواحى حيان الانسان الوجدانية والنزوعية ، وقد يطغى هذا الاثر على الاستعدادات المكتسبة ، كالعواطف والخلق والشخصية ، فيضعفها أو يقويها ، أو ينحرف بها عن طريقها ، فيزور المحب عن حبيبه لغير ماسبب هام أن كان منقبض المزاج ، وقد يعدل عن أخذ الثأر من عدوه ويصفح ويسالم ، ان كان منبسط المزاج وقد يقعد به خجله عن تحقيق أمور هو راغب فيها ، أو يدفعه نشاطه الزائد الى التهور ، وهو يريد الا أن يكون معتدلا محترما لذاته ، وقد يسيطر الانسان على عواطفه وخلقه ويكفيها الى حد كبير مادامت مكتسبة ، فى حين أنه لايستطيع أن يسيطر على مزاجه مادامت عوامله التى يتكون منها طبيعية أو بدنية .

وقد قسم العلماء الامزجة من قديم الى الانواع الاتيه :

المزاج الدموى ، ويتميز بالقوة والتؤدة ، فصاحبه قوى نشيط لهقدرة على الاستمرار فى العمل وتدبير الامور ، وانما فى هوادة ولين واطمئنان وتسامح ، وينفعل انفعالا شديدا ، ولكنه لايندفع ولا يتهور ، ومن أهم مزاياه طيبة النفس والتودد والاخلاص .

والمزاج الصفراوى أو العصبى ، صاحبه قوى وسريع ، فعنده نشاط الدموى وجلده ولكنه سريع أهوج لايتدبر ولا يتروى ، ويؤدى عمله وهو ساخط متبرم منفعل ولكنه يستمر مع ذلك فى أدائه الى أن يتحد ، وهو متمسك برأيه ، عنيد فيه ، ولا يتسامح ولا يصفح عن المسىء ، ومن صفاته المخيرة دقة الاحساس وسرعة التهيج العصبى والعزلة والنقد .

والمزاج السوداوى صاحبه ضعيف النشاط قليل الهمة ولكنه مع ذلك مندفع ، فيعمل عمله بسرعة ولكنه يمله كذلك بسرعة ويتعب ، أو يكون سريع الغضب ولكنه لايقوى على مقاتلة من أغضبه ، ويغلب أن يستنفد نشاطه فى الامور العملية الحركية واتباع مطالب البدن ، منه الى النواحى الفعلية والدرس والبحث .

والمزاج البلغمى أو الليمفاوى فصاحبه ضعيف الهمة قليل النشاط عديمه لارأى له ولا عزيمة ، ومن صفاته المميزة المرونة والطيبة والامانة وعدم التاثر وبلادة الذهن .

وأضاف المحدثون مزاجين آخرين :

المزاج الضحوك ، وصاحبه ضعيف الهمة قليل النشاط ولكنه راض عن نفسه والدنيا ، ولذلك يعوض عن نقصه بالمرح والدعابة وحب النكتة والتسريح ، ويصعب عليه أن يتولى عملا جديا مسئولا أو يستمر فى عمل شاق أو يصمد لنكبات الزمان ، وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ويل للذى يحدث بكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له » .

والمزاج الزئبقى ، صاحبه موفور النشاط ولكنه بطىء الانفعال ، لا يبدى رأيا ، ولا يبدأ مشروعا ، ولكنه يؤيد الجانب القوى ، دون اهتمام أو تحمس ويمتاز بالهدوء والبساطة والقناعة وتقلب الرأى .

وللامم أمزجة مستمدة من مزاج غالبية أفرادها ، فالامم الناهضةالمتفوقة المغامرة يغلب عليها المزاج الدموى ، والامم العاطفية التى اشتهرت بالفتوة يغلب عليها المزاج الصفروى ، والشعوب المستهترة يغلب عليها المزاج الضحوك ، والامم المنصرفة لشهواتها ومتعها البدنية سوداوية المزاج ، والامم الخاملة التى أهلكتها المخدرات وتحكمت فى عقولها الخرافات والسحر والشعوذة بلغمية المزاج .

محمد مظهر سعيد